ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Kazem Lafteh Jabr

Wasit University / College of Arts

Email: kjabur@uowasit.edu.iq

Keywords:

pain, therapy, philosophy, Christianity .

CC BY

A r t i c l e i n f o

Article history:

Received 20.Aug.2025

Accepted 3.Nov.2025

Published 10.Febr.2026

Pain and its Treatment in Christian Philosophy "Augustine and Thomas Aquinas as Models"

A B S T R A C T

Pain is an existential concept that is inseparable from the life and formation of every human being. The value of pain is linked to higher values (truth, goodness, and beauty), as well as to the meaning of religion, psychological conditions, social customs and traditions, and political ideologies. Pain, as a concept, is relative among individuals.

Pain is one of the important existential questions that has occupied philosophical thought since the earliest days of rational thought. This question is of great importance in Christian philosophy, as it raises issues surrounding the suffering of life, torment, and the relationship between man and God. Through the teachings of the Christian religion, pain is viewed as a spiritual and moral human experience linked to evil, sacrifice, and salvation, transcending biological and psychological dimensions. Therefore, the philosophy of both Augustine and Thomas Aquinas was based on the study of pain to understand the relationship between man and himself, or between man and his Creator. Their understanding of pain was not limited to rational interpretation only, but they sought to understand it through the Holy Bible and philosophical thought.

© 2026 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol62.Iss1.4668

الألم وعلاجه في الفلسفة المسيحيّة " أوغسطين وتوما الأكويني أنموذجين"

م.م كاظم لفتة جبر
جامعة واسط ــ كلية الآداب

الملخص :

يعد الألم من المفاهيم الوجودية التي لا تنفك عن حياة كل إنسان وتكوينها، و ترتبط قيمة الألم بالقيم العليا (الحق والخير والجمال)، وكذلك بمعنى الدين، و الظروف النفسية، والعادات والتقاليد الاجتماعية، والايديولوجيات السياسية . فالإلم كمفهوم نسبي بين الأفراد .

و يعد الألم من الأسئلة الوجودية المهمة التي شغلت الفكر الفلسفي منُذ البداية الأولى للتفكير العقلي . وتجد لهذا السؤال في الفلسفة المسيحية أهمية كبرى، كونه يثير إشكاليات حول معانات الحياة ، والعذاب، وعلاقة الإنسان بالله ، ومن خلال تعاليم الدين المسيحي ينظر إلى الألم كتجربة إنسانية روحية واخلاقية ترتبط بالشر ، والتضحية ، والخلاص ، تتجاوز الأبعاد البيولوجية والنفسية .

لذلك ارتكزت فلسفة كل من أوغسطين وتوما الإكويني على دراسة الألم لفهم العلاقة بين الإنسان ونفسه، أو بين الإنسان وخالقه، ولم يقتصر فهمهما للألم على التفسير العقلي فحسب، بل سعى إلى فهمه من خلال الكتاب المقدس والتفكير الفلسفي.

الكلمات المفتاحية : الألم ، العلاج ، الفلسفة ، المسيحية .

أولاً – دلالة الألم

أ– الألم في اللّغة :

ففي اللغة يبدو الألم هو الوجع ، والجمع آلام وقد ألم الرجل يألم ألماً ، فهو ألم . ويجمع الألم آلاماً، وتألم والمتهُ . والأليم : المؤلم الموجع مثل السميع بمعنى المسمع ، وانشد ابن برى لذى الرمه: يصك خدودها وهج أليم، والعذاب الأليم الذي يبلغ إيجاعهُ غاية البلوغ (ابن منظور ، صفحة ١١٣) . فهو الشعور بما يضاد اللذة سواء أكان شعوراً نفساً أم خلقياً (المعجم الوسيط ، ٢٠٠٤، صفحة ٢٥).

فالألم هو إحساسنا بما يعارض طبيعتنا ، وهذا المعارض يقابله الملائم ، وكل مدرك لا يعارض طبعيتنا فأنه ليس بألم . (الجرجاني ، ١٩٨٥، صفحة ٣٥).

ويعد الألم احد الظواهر الوجدانية الأساسية . وهي حالة نفسية معينة يصعب تعريفها ، وتتميز بإحساس مادي أو معنوي بعدم الراحة ، أو بالضيق ، أو بالمضض ، ويقابل اللذة . وإدراك المنافر من حيث إنه منافر . ومنافر الشيء هو مقابل مالا يلائمة وقد اتخذت اللذة والألم مقياساً للخير والشر في بعض المدارس الفلسفية (مدكور، ١٤٠٢هـ_ ١٩٨٣م، صفحة ٢٢) .

ب– الألم في الاصطلاح :

الألم من مصدر ألم يألم ، كعلم يعلم وهو مقابل للذة، والألم واللذة هما من الأحوال النفسية الأولية ، فلا يعرفان، بل تذكر خواصهما وشروطهما دفعاً للالتباس اللفظي. وهذ يعني انهما غير قائمان بذاتهم، بل عن طريق عرض صفاتهم،

فاللذة والالم وجودهما مرتبط بالموضوع المدرك. لهذا تم تقديم(اللذة والألم) من قبل الفلاسفة و منهم (ابن سينا) إذ يرى: أن اللذة والألم ليسا مجرد إحساسين جسدين ، بل يرتبطان بما يدركه الإنسان على أنه كمال أو آفة. وهذا ما اتفق به ارسطو وجون ستيورات مل على **ان أي حركة أو فعل تشعرنا باللذة اذا كانت موافقه لطبيعة الإنسان، أما الألم فهو كل حركة أو فعل منافر لطبيعة الإنسان، فالألم ينشأ عندما يفوق الفعل طاقة الفاعل أو يقل عنها** (صليبا، ١٩٨٢، صفحة ١٢٣).

ولعلنا نرى أن هذه الآلية النفسية والجسدية التي يعمل وفقها الإنسان هي التي تحكمه في ضرورة تجنب الألم من خلال نيل ما يوافق النفس ويشعرها بالراحة والسكون ، أو ما يلائم الجسد ويشعره بالكمال ، بعيداً عن فكرة الدقه والاعتدال .لأن هذه المفاهيم اذا كانت تعمل في العلم والأخلاق ، فهي غير مجدية في تجنب الألم ، لأن الألم جزء عرضي في كل حاجة أو رغبة يسعى الإنسان للحصول عليها أو نيلها .

ت- والألم نوعان :

- **ألم جسماني :** ينشأ عن إحساسات جسمانية ذات مصدر محدود ، كاحتراق اليد، وضرب الضرس، ووجع العين . ومن خواص الألم الجسماني انه قد ينتشر في البدن بحيث لا يعرف مصدره فيوصف إذ ذاك بالتعب ، والوعك ، والاضطراب.

- **ألم نفساني :** ينشأ عن تأثير الميول، والأفكار، والاعتقادات، والآراء، كمن يرسب في الاختبار فيشعر بالألم لعدم بلوغ هدفه ، أو كمثل من يُخبر عن موت صديقه له فيحزن ويتألم لفقدانه . ومن خصائص الألم النفساني حين يزداد قد يصبح قريباً من الانفعال أو الهيجان ، ويسمى في هذه الحالة حزناً .

ومفهوم الألم حديثاً لم يعد يقتصر على الشعور بالحزن أو الأحساس بالتعب، بل أصبح يدل على خلل جسماني ، كما يحمل معنى أوسع يشمل كل ماينافي التوزان الجسدي ، مثل المشاعر السلبية كالحزن والكآبة والغم، أو ما يؤثر على سلامة الجسد ووظائفة .

فكل هذه التحولات في المفهوم تدل على غموضمه وانه غير ثابت عند الكل، لأن العبض من العلماء يرجعه إلى معنى باطني، واخرين إلى مؤثر خارجي . وبعضهم يجعله مقابلاً للذة وانه جزء من الحياة .

والألم عند اصحاب المشاعر السلبية يكون إيجابياً وحقيقياً، لأن حياة الإنسان عندهم عبارة عن رغبات غيرة متحققه، ويكون في سخط دائم ، ولايمكن الشعور باللذة إلا عند نسيانه قبح الحياة . ومعنى ذلك أن الألم حقيقي ، وان الراحة لا تحصل للانسان إلا بتخلصه من الألم ، وهذه رؤية محمد بن زكريا. أما فخر الدين الرازي فيرى أنَّ الالم لا اختلاف في أنه طبيعة وجودية عند الكائنات الحية .

ويبدو هذا الفهم غير صحيح، لأن الألم يحدث عن رغبة لم تتحقّق ، وشهوة لم تشبع ، لأن القدرة بطبيعتها غير مؤلمة ، بل ان القدرة تعني انها ملائمة لذات الشخص ، فإذا شاهد الشخص بعينه صورة جميلة فإنه يلتذ بها من خلال بصره ، مع أنه اول مرة يراه تلك الصورة ، حتى تكون لذة النظر خلاصاً من ألم الشوق. فاللذة والألم حالات نفسية ، بعكس الراحة والتعب حالات توصف بها الألم الجسدي، فاللذة والألم لا يتعمد وجود احدهما على الآخر، بل لكل منهما وجوده ومتطلباتة الخاصة (صليبا، ١٩٨٢، صفحة ١٢٤_١٢٦) .

ثانياً - الفهم الفلسفي للألم قبل المسيحية :

أ- الألم والقدر :

إذا كانت اللذة والألم جوهرين أساسين في الحياة ، وإذا كانت البشرية قد وضعت طبيعتها بالرغبة التي تقودنا الى اللذة ، فهل هناك من تطلع في ايجاد سياق يهذب طبيعة الخليقة البشرية ، من خلال العتق من رغباته ودوافعة الشهوانية التي تجعله يحب الخير على الشر ، وتستعلي الفضيلة على الرذيلة ؟

لا مناص من العودة إلى بداية الكائن البشري، من الحيوانات التي هي أقل منه ، لنتمكن أن نفهم إن كان الإنسان سائرا في تقدمه نحو اعلاء الجانب الشعوري، أم أن التقدم اقتصر على العقل فيه، كما ان التحول الذي حدث في العواطف والانفعالات والشهوات احياها وجعلها ترتد للعقل ضرورة .

ويرى إسماعيل مظهر في كتابة " فلسفة اللذة والالم " لا ارتباط بين ارتقاء العقل وارتقاء المشاعر فكلاهما على ما يبدو يتطور ويتقدم ويتحول في جانب وحده ، كما ان المشاعر في ارتقائها تتخذ السمات الأعلى من الفضائل الأخلاقية ، على ما تستلزم النفس الإنسانية من أن تكون الفضيلة الخلقية باعتبار الزمان والمكان .

إلا اننا لا نبدي اتفاقاً معه بهذا الخصوص ، كون أن نمو المعرفة لا ينفصل عن نمو المشاعر عند الإنسان ، لأن معرفة الحق والحقيقة تغير الكثير من موقفنا ومشاعرنا اتجاه امراً ما، صحيح ان القيمة الأخلاقية ترتبط بالتعقل والحكمة ، لكن المشاعر الإنسانية هي وليدة رغبة ذاتية جراء مؤثر خارجي ، كما ان لكل عصر ثقافة و أفكار تنمو من خلالها مشاعرنا وحتى سمة التعبير عنها ، سواء كانت دينية أو أيديولوجية .

ولا شبهة في ان الحيوانات تشترك مع الانسان ببعض الصفات لكن بدرجة أقل ، اذ ان طبيعة الحيونات من حيث الغريزة والشهوة والرغبة والميل احط من الانسان وأقل تنوعاً، من حيث ان الادراك الجمالي عند الإنسان اقوى واوضح، وان الطمع الإنساني يجعل رغباته تتغير، كما ان ارتباط الانسان بالمستقبل سمة يفقدها الحيوان ... ، وغالباً ما تتغير مدارك الإنسان من حيث صلته بالمستقبل إلى تصورات توقظ فيه الجشع الاجتماعي وتوقظ الشهوات . لذلك تجد الشهوات اعلى عند الإنسان من الحس الأدبي، بسبب تحكم الرأسمالية بالاقتصاد ، مع فقدان الضمير باختلاف البيئة أو العصر (مظهر، ٢٠١٤، صفحة ٣٠) .

كما ان الرثاء الناجم عن المعانات والموت موجود في كل ثقافة إنسانية ، وغالبا ما يكون بلهجات متشابهة جدا ، يتردد صداها بشكل خاص في المأساة اليونانية ، التي يتعين على أبطالها دائماً مواجهة القدر جنبا الى جنب مع المعاناة ، والتي أصبحت أيضاً عند "أسخيلوس وسوفوكليس " شكلاً متقدما من أشكال المعرفة ، إذ تم الترحيب بالألم بطريقة قدرية ، وقد كان للقدرية اليونانية معنى مخصوص : مباركة القدر وفهمة بطريقة إيجابية (الدبوبي، ٢٠٢٣، صفحة ١٧).

وبالتالي فإن المعانات مثل الشر والموت ، لا مفر منه ولا يمكن التغلب عليها . الألم بالنسبة لليونانيين القدامى تجربة الموت ، وبهذا المعنى فهي مأساة . لا شيء أكثر حتمية من الموت ، انه ختم الضرورة المطبوع على كل كائن حي ، والألم تعبير عنه . من هذا المنطلق يمكن وصف كل ألم بأنه مأساوي ، لأن مصدره الإله ، ولا إردة ولا قوة للإنسان على رده . لذلك توجب معرفة الألم ، كإمكانية وحيدة لحفظ الكرامة الإنسانية (الدبوبي، ٢٠٢٣، صفحة ١٨).

ب- وجهة نظر افلاطون وارسطو :

وتجد الفلسفة اليونانية مع سقراط وجهت الفكر الى البحث في الانسان ، بعدما كانت قبله منصرفة الى العالم المادي ، ومع سقراط كانت الأفكار الأخلاقية منثورة في اقوال الشعراء على شكل حكم وامثال ، وان اول ظهور للشعور الأخلاقي عند اليونان إنما هو في شعرهم ...، اما النظر العلمي في الفضائل الأخلاقية فمن بدأ به في الغرب هما أفلاطون وارسطو

، وبالخصوص ارسطو ، ولم يبت احداً قبلهم الحكم على الفعل الاخلاقي أو على الأشياء ، اذ كان الناس قديماً يميزون بين الحسن والسيء في الأخلاق بجعلهم لكل فعل حكماً معيناً . الا ان النظر العقلي جعلهم يبحثون في الاصول والاسباب (رابوبرت، ٢٠١٤، صفحة ٤٧).

يستبعد أفلاطون في محاورة "الفيلاب" وفي الباب التاسع من" الجمهورية " القول بوجود حالة متوسطة بين الألم واللذة ،مثل حالة الانسان الذي لا يشعر بالعطش ولا بالجوع فلا يأكل ولا يشرب . وهذا السياق يُدلي أفلاطون ببعض الحجج كقوله مثلا بأن وجود حالة وسطى بين اللذة والألم لا يجعلنا نفهم كيف يمكن لهذه الحالة أن تتحول إلى شعور باللذة والألم . ثم ان الأحساس باللذة عندما يزول الألم ، والإحساس بالألم عندما تزول اللذة إحساسان يقومان على شعور وهمي ، لأننا من جهة نقر بوجود حالة وسطى بين اللذة والألم لا هي لذة ولا هي ألم ، بل هي حالة من السكون الاستقرار ، ومن جهة أخرى نصرح بأنه ليس ألذ من الألم ، أي الأنتقال من اللذة الى مؤلم ومحزن (ابيقور، ب ت، صفحة ١١٦).

وعلى ذلك يقول افلاطون بلسان سقراط " إذن الحالة الوسطية للراحة ستكون مسرة وستكون الماً في وقت آخر ، أيضاً ...، لكن أيستطيع الذي لا يكون هذا ولا ذاك أن يصبح كلاهما ...، مرة ثانية إذن ، فإن السرور والألم كليهما هما حركتان في الروح ...، لكن الذي لا يكون لا هذا ولا ذاك ...، كيف إذن ، أن يكون حقيقياً أن نفترض بأن غياب الألم هو السرور، أو أن غياب السرور هو الألم ..، يكون هذا إذن مظهراً فقط وليس حقيقة (أفلاطون، ١٩٩٤، صفحة ٤٢٨).

وعلى هذا يرى افلاطون أن طبيعة الأشياء تعتمد على أمرين معينين : اللامتناهي والمتناهي ، ومن تمازج الأصلين أو المؤثرين اللامحدود والمحدود يفرز عن ما تبصره في الكون من جمال وقوة . إذا نظرنا عند أفلاطون عن طبيعة اللذة والألم . فما هي اللذة ؟ وماهو الألم ؟ فنجد أفلاطون يقرر أن الألم ظاهرة تصاحب انحلال الوحدة التي يحدثها تمازج المؤثرين الرئيسين " اللامتناهي والمتناهي " . وأن اللذة ظاهرة تصاحب رجوع المؤثرين الى وحدتهما . ومن ثم يمايل بين اللذة والألم على الحالات الطبيعية باللذة والألم الناتجين عن الترقب ، أي القائمين على الحالات النفسية . (عبد العزيز ، ٢٠٢٤، صفحة ١٩١٢).

أمّا آرسطو يقرر أن قوى النفس لا تفسد إلا باللذة أو الألم متى طلب الأنسان أحدهما ، أو فر من الآخر . ونصل إلى النتيجة المحتومة وهي القول بأن ملكات النفس بالأشياء ، لا بد أن تتكيف دائماً بإحدى صورتين ، فتكون في إحداهما لذّة، وتكون في الأخرى ألماً . ولكن هل صحيح أن ملكات النفس لا تفسد إلا باللذة والألم وحدهما ، أن كان هناك مجال لإفسادها ؟ وهل هذا الحكم الذي يطلقه أرسطو طاليس إطلاقاً ، يفيد أن اللذة والألم لا ينجم عنهما هداية قوى النفس إلا الفساد ؟ هنا يتقرر ان النتائج المستنبطه تنجم عن احكام أرسطو طاليس ، تتمايز اطلاقا عن وجهة نظر مذهبه ، وهي في اصلها ترى بأن اللذة والألم مبادئ تصدر عنهما أفعال الشخص المختلفه . و جمع هذه الأفعال هي ما تسمى الأخلاق .

ويرى أرسطو أن الفضيلة الأخلاقية تتعلق بالآلام واللذات. فطلب اللذات يحثنا إلى الشر، والخوف من الألم هو الذي يصدنا عن فعل الخير. وكذلك يصرح أرسطو طاليس بأن اللذات والالآم من التكوين الطبيعي للإنسان ، لا من القدرات فيقول إن الفضيلة لا تحصل البته إلا بالأفعال والرغبات ، فلا فعل ولا رغبة ، إلا بسبب إما اللذات وإما الالآم . وهذه دلالة على أن الفضائل تترتبط فقط بالالم واللذة .

وأن الحياة الأنسانية تزدهر حينما يكون الهدف الرئيس هو تحقيق السعادة ، فالناس يرغبون في أشياء كثيرة مثل المال، والسلطة والشهرة أو الحب ، ولكنهم يبحثون عنها كوسيلة لتحقيق أكبر قدر من السعادة فالسعادة هي الشيء الوحيد الذي يسعى إليه الإنسان كغاية في ذاتها ولتجنب الألم (عبد العزيز ، ٢٠٢٤، صفحة ١٩١٣).

ت- الألم مقابلاً للذة عند الابيقورية والرواقية :

كما انصبت الاخلاق الابيقورية حول فكرتين : البحث عن اللذة و تحاشي الآلم ، لان الحيوان والانسان على الدوام يلتمسان اللذة وينفران من الألم منذ الولادة ومن دون تعليم ، فالحكيم الذي يحرر ذاته من الرغبات والشهوات والهموم والمخاوف ويسكن قلبه الطمأنينة ، ولكن الهدف ليست الطمأنينة ، لأن هدف ابيقور هي اللذة ، ومعيار الخير عنده هو اللذة والتخلص من الألم ، ويستند في ذلك على مراقبة فعل الطبيعة الذي يظهر دائماً اشتهاء اللذة والنفور من الألم (الوالي، ٢٠٠٩، صفحة ١٩٥) .

و يؤكد ابيقور ذلك في رسالته الى منسي ان كل لذة خير في ذاتها، إلا انه يستلزم ان ننظر في كل اللذات في نفس السياق، وكل ألم شر في ذاته ، لكن لا ضرورة للنفور من كل ألم ، لذلك يجب ان نتفحص أمر كل منهما ونبحث ونتمعن جيداً عن غاية كل واحد منهما من حيث الافادة أو الضرر، فليس كل لذة خير في غايتها ، وكذلك ليس كل ألم شر في غايته (ابيقور، ب ت، صفحة ٢٠٦) .

أما الرواقية فأن هدف الحياة عندها او غايتها بحسب ديوجنس هو ان نحيا بحسب الطبيعة ، وهو مدلول الفضيلة عنده . وحياة الفضيلة هي الحياة بحسب الطبيعة وبحسب سنة الكون الذي يخضع كل شيء فيه للعقل الكلّي ...، وقد عرفوا الحكمة تعريفا عمليا بحثا ، فقالوا إنها عبارة عن معرفة الخير والشر وما ليس خيراً أو شراً، أو ما ينبغي أن نختار أو نتجنب أو لا نأبه له (فخري، ١٩٩١، صفحة ١٧٥) .

لذلك قال الرواقيون أنما الأمور بعضها خير وبعضها شر، وبعضها ليس هذا ولا ذاك ، فمن الأمور التي يمكن عدها خيراً الفضيلة والتأمل والعدل والشجاعة والحكمة ، ومن الأمور التي يمكن عدها شراً النزق والظلم وما إليهما . أما الأمور التي ليست خيرا ولا شرا تلك التي لا تنفع ولا تضر، كالحياة والصحة واللذة والجمال والقوة والثراء والمجد والشرف ، وعكسها أيضا ، كالموت والمرض والألم والعار والضعف والفقر والسوقية ودناءة النسب (سعيد، ١٩٩٩، صفحة ١١٣). يمكن ان نذهب مع الرواقيين في أن طبيعة اللذة والألم، أو الحياة والموت، أو الصحة والمرض، أو الجمال والقبح ، أو القوة والضعف .. الخ . ليست خيراً أو شراً ، لكن ما ينقص أو يزيد يمكن ان ينفع أو يضر الإنسان فيسبب له الألم والحزن والغم عندما يخضع كل ذلك لثقافة المجتمع ومتطلبات الحياة الإنسانية حسب كل عصر ، والزمان والمكان .

لذلك نجد في فلسفة أرسطبس يرى أن اللذة لا ترتبط بالمشاعر بلحظة بعينها فتحصل اللذة مباشرة سواء كانت لحاجة للتخلص من الم أو من دونها، وعنده قاعدة في الحياة فإن استحوذت اللذة على الإنسان بالايجاب أو السلب ، وهو يؤدي اي شأن من شؤون الحياة، فأن همس الضمير يخفت تماماً ، و إذا قام بالسلوك ، وكان مخالف للشريعة والآداب والاعراف استيقظ الضمير واخذ يحاكم النفس على عملت من فواحش واستسلام للغرائز والشهوات، فالضمير ملكة ثانوية عند الإنسان بعكس الشهوة جزء اساسي من طبيعة الإنسان . إلا ان ارسطبس حذر عن ذلك ، فيرى ان اللذة لا يجب ان تكون مرتجعة بالألم الذي يسبقه تأنيم الضمير (مظهر، ٢٠١٤، صفحة ٢٨). وهذا يثبت ان الغريزة أقوى من اي التزام للنفس، وان الضمير لا يصحا إلا بعد فوات الأوان ، وان هذه الصحوة للضمير لا تكون إلا لغرض لكبت رغبة في النفس ، أو محاسبة على سلوك فعلته بعد خضوعها لغريزة ، فالغريزة أقوى أثراً من الضمير في الافعال والسلوكيات الإنسانية ...، فالضمير بحاجة إلى التعقل لكي يصحا ، فإن أي حكم على السلوكيات بأنه سلبي أو ايجابي ويتفق مع الشرائع والآداب يكون بحاجة للتعقل، وان الفكر قد يخطئ لأن الحكم متغير ومتفاوت ويختلف بين الأفراد ، ومن زمان إلى آخر(مظهر، ٢٠١٤، صفحة ٣٠).

ثالثاً– موقف الفلسفة المسيحية من الألم :

إن لا معنى الألم يضيف للمرء دوما عذابا إضافيا، وأن نمنحه معنى أخلاقيا أو روحيانيا أمر يخفف من قساوته . تجهد الأنظمة الدينية في إدماج مسألة العذاب في تصورها للعالم بالنظر إلى الجبروت المنسوب لله أو الآلهة . إنها تحاول تبرير ذلك العذاب بمنحه معنىً . وهو يبدو في هذه النقطة مُناقضا للشرط الإنساني ولفرضية إله جبار ومحب لمخلوقاته ، بحيث إن العذاب ظل موصولا بالعقاب وبإرادة إلهية في العقاب أو في اختيار إيمان الإنسان في ألمه. تحيل الكلمة الإنجليزية pain إلى دلالات كالألم والعذاب والعقاب والبلاء . وهذا اللفظ مشتق من اللفظ اللاتيني poena الذي يحيل إلى الألم والبلاء والعقاب والجزاء. اما اللفظ الإغريقي poine المشتق من السنكريستية pu الذي يعبر عن التطهير أو التكفير عن خطيئة ما (لوبروطون، ٢٠٠٧، صفحة ٢٦).

لذا جاءت المسيحية فوقفت من الألم موقفاً مختلفاً كل الاختلاف، وإن لم يكن ذلك من وجهة نظر أخلاقية صرفة ، والواقع أن المسيحية لم تر في العذاب مجرد ضعف أو نقص ، بل هي قد اعتبرته رافعة أخلاقية ، فاعترفت بما للألم من تأثير محرر على النفس البشرية ، وذهبت إلى أنه كثيراً ما يكون أداة ترق أو وسيلة تسام بالنسبة إلى الشخص الإنساني (ابراهيم، ١٩٦٦، صفحة ٢٠٨).

اذ اكتسب الألم معنى جديداً ، حيث لا يتم وصفه فقط بأنه شر جسدي ، نتيجة للاضطراب الذي تسببه الخطيئة ، وشر أخلاقي مرتبط بحرية الأنسان ، ولكن أيضا كطريقة مميزة للإنسان . لا ينتمي الألم إلى الطبيعة البشرية ، بل للفكر الديني المسيحي الذي يجد في الكتاب المقدس ، وتعاليم الكنيسة مصدر تشريعه الأول (الدبوبي، ٢٠٢٣، صفحة ٢٢) .

وكما هو معروف لكل مجتمع انساني طابع أخلاقي يتميز به ولعل الأخلاق التي عرفتها فترة العصور الوسطى كان لها تشكيلة مختلفة عما سبقها من الأخلاق التي سادت في القديم بحيث ان القيم الأخلاقية في الفترة الوسيطية جاءت بناء على معتقد ديني ويعد المعتقد هو المصدر الأول الذي فسرت من خلاله الأخلاق في تلك الفترة ويتمثل هذا المعتقد في الخطيئة الأولى التي ارتكبها آدم قبل نزوله إلى الأرض وهذا ما تناولته الكتب المقدسة للديانة المسيحية (ام الخير، ٢٠٢٠_٢٠٢١، صفحة ٢٠).

أ– الألم بوصفه وجوداً :

لا يكون اي وجود إنساني لا يعي أو يشعر بذاته، كما ان الشعور بجوهرنا هو تفكير بالألم، لأن الذات الإنسانية تبقى مرتبطة بالواقع الخارجي والأشياء، إلى ان تتعرض إلى ما يخالف طبيعتها حتى تشعر بنقصها وفردانيتها ، وذلك يشعرها بوجودها ، لأن وجودها لم يعد كما هو، وبيان ذلك ان الألم هو الذي يظهر لنا قصور الحياة ويثبت وجودنا ،فتتمزق معها الرابطة التي كانت توثقنا بالكون . وإذا كانت الصلة وثيقة بين خبرة الألم من جهة ، وبين الشعور بالذات من جهة أخرى ، فما ذلك إلا لأن المرء يشعر بذاته حينما يجئ الكون فيدفعه بقسوة ،أعني حينما يدرك لأول مرة أنه بإزاء خصم خارجي هو الكون . وهنا يبدو الفارق الكبير بين اللذة والألم : فإن اللذة بطبيعتها باسطة ، في حين أن الألم من شأنه دائماً أن يردنا إلى ذواتنا ، ويحتسبنا في وجودنا الفردي (ابراهيم، ١٩٦٦، صفحة ٢٠٥).

أن الألم ليس مجرد منبه يشعرنا بكياننا الفردي في وسط عالم يرين علينا فحسب ، وإنما هو كذلك دافع يحثنا إلى الانفراد والقطيعة . وهذه هوية منفتحة تستقبل الغير ، وتتوجه بكل أحاسسيها نحو ذات الغير ، غير أن أحياناً تواجه صفعة قاسية من صفعات الشر ، فما هي إلا لحظة حتى تجدها تنسحب من الحياة الخارجية ، كي تعاني الألم بخفية وانفراد ، وقد يكون من الحديث المعاد أن نقول إن الأنسان الذي يتألم يميل دائما إلى الانعزال عن الناس ، لأن من شأن الألم أن يشعره بحدوده ...، الواقع ان الحياة الشخصية للإنسان في صميمها انقباض وانبساط ، وتقلص وامتداد ، تركز واشعاع ، انفصال واتصال ، انطواء على الذات وافتراق عن الذات (ابراهيم، صفحة ٣٤_٣٥).

ب_ ماهية الألم :

كلمة ألم لها معنيين يجب التفريق بينهما الأول هو نوع من الإحساس ، ربما تنقله ألياف عصبية متخصصة ويدركه الإنسان لكونه ذلك النوع من الإحساس سواء كان يكرهه أم لا (مثل الألم في الأطراف على أي حال هو ألم ، حتى لو لم أكن معترضا علية) ثانياً ، أي خبرة سواء كانت جسدية أم نفسية ، يكرها الإنسان (لويس، ٢٠٢١، صفحة ١١٥) .

فالألم خبرة إنسانية اذا ارتبطت بالنفس كانت حزناً، أما اذا ارتبطت بالجسد سُميت مرضاً ، فالصحة لذة الجسد، والارتياح لذة النفس ، لكن الذي يجمع بينهما الحزن بوصفه مفهوماً أعم وأكثر دالالة على الأسى و الفقدان أو النقص والخسران . لذلك تجد أوغسطين يقول : أما الحزن الذي يدعوه شيشرون (مرضًا) وفرجيل (إلماً) في هذا البيت من الشعر " وهناك آلامهم وأفراحهم " فأنا أفضل استعمال لفظة (حزن) لأن الاستعمال يحتفظ للجسد دون سواه ، بكلمات "ألم ومرض" أما الحزن فقد يؤخذ بمعناه الإيجابي الطيب " ... ، أما بشأن الألم الأدبي أو العذاب وتجنبا لكل التباس ، قد فضلنا أن نسميه حزناً (أوغسطين، مدينة الله . مج١_٣، ٢٠٠٧، صفحة ١٦٩) .

أما القديس توما الاكويني: يشترط للذة امران ارتباط الخيرية وادراك هذا الارتباط ، وأيضاً يلزم للالم امران أي ارتباط الشر بما ينعدم به الخير وادراك هذا الارتباط . و جل مرتبط اذا لم يكون حسن أو سيء مقارنة بما يرتبط به فمن غير الممكن ان ينتج لذة او الم ،ويبدو أن كائناً ما يكون موضوعاً للمتعة والعذاب بوصفة حسن أو سيء ، فالحسن والسيء من حيث هما كذلك يرتبطان بالشوق، فيتبين اذن ان اللذة والالم يرجعان الى الرغبة والميل والشوق الذي يتبع الإدراك العقلي أو الحسي ...، فاذاً لما كان لا بد عن تقدم اللذة والالم باحساس أو ادراك في نفس الموضع صار جلياً ان الالم نفس اللذة كذلك لأنه في الميل العقلي او الحسي وكل حركة في الشوق الحسي يقال لها انفعال ولا سيما ماكان دالاً على نقص ولذلك فالالم باعتبار كونه في الشوق الحسي يقال له باخص وجه انفعال نفساني (الإكويني، ١٨٩١_ ١٨٩٨، صفحة ٥٤٤). وبهذا يتفق أوغسطين مع توما الاكويني بأن الألم انفعال نفساني لا يرتبط بطبيعة تكوين الإنسان ، بل بطبيعة المعنى الثقافي والاجتماعي و الديني للخير والشر ، لذلك استخدام الألم عندهم بمعنى العذاب لكونه مرتبط بمفاهيم الخطئية والخلاص .

ت– الألم والخطيئة :

اعتقد أوغسطين أن منذ نزول ادم الى الأرض قسم العالم الى قسمين وهما عالم الخير وعالم الشر وعليه فقد ارجع معظم الكوارث والأزمات التي حلت بسكان روما هو بعدهم عن الله وعدم الإيمان به (ام الخير، ٢٠٢٠_٢٠٢١، صفحة ٢٩). وهذا الذي أكده أوغسطين في مدينة الله أذ قال : يتألمون بسبب خطاياهم ، ويفرحون بأعمالهم الصالحة . إن خافوا من الخطيئة ، فلأنهم يدركون معنى هذه الكلمة (أوغسطين، مدينة الله . مج١_٣، ٢٠٠٧، صفحة ١٧٣). "ولكثرة الإثم ، تبرد محبة الكثيرين" (متى ٢٤/ ١٢) .

فالملخص الأساسي لمسألة الانجيل، أن الإله المقدس الغير محدود السلطة والفلاح ابدع وجوداً فاضلاً وخيراً و لكن البشرية تمردت، وهذا العصيان حالياً جزءاً من تكوين الإنسان صار. لذا فإن كل المآسي التي نصادفها حالياً تعود إلى هذا الواقع، وهي بصورة ما ترتبط بالشر والخطيئة الأولى ، إلا انه ليست جميع الالآم ترتبط بالخطيئة بذات النهج ... ، لذلك اصبح هناك إدراك أساسي لمعتنقي المسيحية بأن الكون الذي نحن فيه هو كون متفكك على جميع الصعد، وهو ليس بأفضل الاكوان ، وان الالم هو ثمن الخطيئة في هذه الحياة(تينكر، ٢٠١١، صفحة ١٣) .

إلا أن التقليد المسيحي يحول العذاب إلى مصدر للنضج لدى المؤمن الذي يقبل بالمحنة، أو إلى عقاب إلهي لمن يخرج عن الشرائع : إنه لحظة تربوية لإعادة المؤمن إلى تواضعه ومبدأ عدل يصيبه في الدنيا . وتتفق الديانات الثلاث على

استحالة التبصر في الأسباب التي جعلت الرب يبتلي بالعذاب الرجل العادل . بالمقابل فهي تمنح لكل واحد التوجيهات الكفيلة بجعله يقبل العذاب . وهي تجهد في وعد الصابرين بالجزاء في الآخرة عن بلاء الدنيا ، محاولة بذلك التخفيف من وقع العذاب ، لا بمنحه معنى في اللحظة الآنية ، وإنما بربطه بالحياة الآخرة إذا ما نجح الفرد في الاختبار . إن ألماً في الحاضر سيكون إذن خيرا في المستقبل لمن لا يخرج عن السلوك القويم (لوبروطون، ٢٠٠٧، صفحة ٢٧).

ويرى أوغسطين ان الخلاص من الذنب يتم بالتوبة و يرتبط بنوعين من الألم أو الحزن كما يحب ان يسمي : الحزن الذي ينبع من الله ، والحزن الذي يأتي من العالم، الأول يشعرنا بالطهارة من الذنب والتوبة الحقيقية التي تقود إلى الخلاص دون ندم، أما الثاني فينهك اجسامنا واروحنا و يؤدي الى الموت الروحي. لذاك يعتبر أوغسطين ان التألم أو الحزن الحقيقي هو الذي يؤدي إلى تحول داخلي وتغير جقيقي في سلوك الإنسان والاهتمام بالنظام وعدم التمرد (أوغسطين، مدينة الله . مج١_٣، ٢٠٠٧، صفحة ١٧٣). " فما نالكم منا أية خسارة لأن الحزن الذي من الله يؤدي إلى توبة وخلاص ولا ندم عليها ، أما الحزن الذي من الدينا فيؤدي إلى الموت . فانظروا كيف أدى هذا الحزن الذي من الله إلى اهتمامكم " **مدينة الله** ، ص ١٧٤. (٢ قور ٧/٨_ ١١).

أما توما الإكويني فينظر لعلاقة الألم بالخطيئة نظرة فلسفية، بما أنَّ العالم مكون من نظام وجب على الإنسان العيش وفق طبيعة عقلانية، فالخطيئة فعل ينتهك النظام الداخلي و طبيعة النظام العقلي الذي خلقنا بها الله الإنسان ، ولغرض اصلاح هذا الانتهاك وإعادة الانسجام في النظام وجب العقاب وهو ليس محدوداً بالفرد ، بل يتعده إلى ثلاث مستويات من الإنظمة التي يخضع لها الإنسان فيرى : لما وجدت الخطيئة سلوكاً غير سوي صار من المعلوم ان جل من يقع بالخطأ يناقض في سلوكة النظام الكوني ، فيتطلب ردعه من قبل ذلك النظام ، وهذا الردع هو العقاب _ اذاً حدد ان الإنسان يمكن محاسبته بثلاثة انواع من العقاب وفقاً لتعدد الانظمة الثلاث التي تطيعها الإرادة البشرية :

١– النظام العقلي عند كل إنسان (الضمير) .
٢– نظام خارج عنه كالسلطة الروحية أو السياسية ، أو الاقتصادية ، او الزمنية أو الاجتماعية .
٣– النظام السماوي الإلهي .

فكل من هذه يخطئ ضد العقل أو الدولة والمجتمع والله فيجد نفسه أمام ثلاث عقوبات من تأنيم الضمير، والقانون والشرائع ، والله (الإكويني، ١٨٩١ _ ١٨٩٨، صفحة ٥١٨).

خلاصة الفكرة أن الم التوبة الذي بسببه العقاب جراء الخطيئة هو ليس ردة فعل فردية ، بل لاعادة الانسجام بين الإنسان والأنظمة (العقلي، الاجتماعي، والإلهي)، حيث أن كل ذنب له نوع من العقاب حسب كل نظام، لذلك كان توما الإكويني أكثر تحرراً في فهم الكتاب المقدس من أوغسطين في اتباعه المنهج الفلسفي العقلاني .

ث– علاقة الألم بالحزن والهم والغم :

ان المعرفة تشتمل على نوعين من المدركات : مدركات مادية ،وأخرى معنوية ،فأما الأولى فناشئة من انتباه النفس للتغيرات الحادثة في الجسم هذه التغيرات جسمية بحته، يعقبها الأدراك وهو فعل النفس وحدها ، إذ ان ليس بالضرورة تأثر البدن تؤثر في النفس، لأن الأقل لا يحدث تغييراً في الاسمى، وهذه قاعدة منتظمة يعتمدها أوغسطين و أفلوطين ، ولكن التحسس دعوة من البدن للنفس وهي موجودة في البدن حتى بعد كل انفعال فيه ... ، اما الموجودات الروحية نعرفها بالاستدلال (كرم، ٢٠١٢، صفحة ٣٨) .

ويشير اوغسطين أنَّ للنفس حركات ثلاث يسميها الإغريق Eupathies وشيشرون Constances حالات ثابتة ويُحلها الرواقيون في نفس الحكيم مكان الاضطرابات ، محل الرغبة الإرادة ومحل الفرح الارتياح ومحل الخوف الحذر ، أما بشأن الألم الأدبي أو العذاب وتجنباً لكل التباس ، فقد فضلنا ان نسميه حزناً . (أوغسطين، مدينة الله . مج١_٣، ٢٠٠٧، صفحة ١٦٩) .

فيظهر أنَّ الغم ليس نفس الألم لأن الألم يوصف به الجسمانيات والغم توصف به النفس ...، كما ان الألم ليس بمتصل إلا بالشر الحالي، والغم ممكن ان يرتبط بالسابق واللاحق ...، الألم ليس إلا في ما ينكشف عن الإدراك الحسي . والغم ممكن إدراكه بالحواس كلها، فالغم اذن ليس كالألم بل اشمل منه . إلا أن يخالف ذلك كلام الرسول: ان لي غماً شديداً والماً في قلبي لا ينقطع (روميه ٢/٩) اذ ان الغم والالم اطلاقا على نفس الموضوع .

لذا يرى الاكويني ممكن تحقيق اللذة والالم عن ادراكين، الحواس الخارجية والعقل أو الخيال، وادراك العقل اشمل من ادراك الحواس، فان جميع ما يبلغه الادراك الحسي يستلمه العقل وليس العكس، فاللذة المدركة عن النفس العاقلة تسمى بالفرح ، و الألم المدرك عن النفس العاقلة يطلق عليه الغم ، وكما ان اللذة المدركة بالحواس يطلق عليها لذة ، ايضاً الألم المدرك عن طريق الحواس يسمى الم واحياناً غم ، وعلى هذا فإن الغم صنف من الألم ، كما ان الفرح صنف من اللذة (الإكويني، ١٨٩١ _ ١٨٩٨، صفحة ٥٤٥).

ج- الألم والإرادة الإنسانية :

يرى أوغسطين أن الإرادة البشرية هي التي تحدد نوعية الاحساسات، فإذا كانت غير منتظمة كانت حركاتها فوضوية، واذا كانت مستقيمة كانت حركاتها جديرة بالثناء بعيدة عن كل لوم، لأنها في كل حركاتها إرادة : فالرغبة والفرح هما الإرادة التي ترضى بهما وتهفو إليهما. وفي الخوف والحزن أليست هي تنفر منهما ؟ وحين لا يكون الرضى سوى انطلاقة من الإرادة يسمى رغبة ، وحين يواكبه التمتع ، يسمى فرحا ، وحين تبتعد عما يسوءها، سواء أكان سابقا أو لاحقًا، سمي خوفاً أو حزناً (أوغسطين، مدينة الله . مج١_٣، ٢٠٠٧، صفحة ١٦٦).

أذن الإرادة توجد في العواطف والانفعالات affectus مثل الطمع والفرح والندم ، كما ان الطابع الأخلاقي لهذه العواطف يعتمد على مدى توجه الإرادة توجها سليما فيها . وفي كتابه جزاء الخطية ينسب أوغسطين إلى الإرادة وجودا في كل الجسد والروح ، ويذهب أوغسطينوس إلى أن الإرادة توجد في الرغبات والانفعالات الجسدية (عبد المسيح، ٢٠١٠، صفحة ١٠٨).

فالانبساط اتفاق النية لما نود ، والاغتمام مخالفة النية لما نرغب . أذن الانبساط والاغتمام ضدان . أما الاكويني فيجيب على ذلك باستعارة قول الفيلسوف ارسطو في الالهيات: ان المضادة اختلاف في الصورة. ومظهر الاضطراب والتغير أي واقعه يستفاد من الشيء او الغاية لكون اللذة والالم متعارضين بوصفهما الخير والشر فيلزم عنها هذا التضاد (الإكويني، ١٨٩١ _ ١٨٩٨، صفحة ٥٤٧).

إن معرفة الألم لا تتولى دور الموقظ الذي ينبهنا بكينونتنا الفردية وسط هذا العالم فقط ، لكن هو أيضاً دافع قوي يحثنا إلى التفرد والانقطاع .... ليس ادل على ما بين الألم والوحدة من صلة وثيقة، من أن الحيوان نفسه قد ينزع إلى الوحدة حين يتألم . ولكن الوحدة بالنسبة الى الإنسان قيمة خلقية كبرى، لأنها الى حياة باطنية خصبة (ابراهيم، المشكلة الخلقية، ١٩٦٦، صفحة ٢٠٧).

فبحسب أوغسطين يجب على الإنسان الذي يعيش بحسب الله ، لا بحسب الجسد، أن يحب الخير كما يجب عليه أن يكره الشرّ. وبما أنه لا أحد فاسد بطبيعته، بل يفسد بالعيب الذي يقع فيه، عليه، بصفته يحيا بحسب الله ، أن يكره الأشرار بشدة ، يكره فيهم عيوبهم ولا يحب الشر ، بسببهم ، لكن عليه أن يكره الشر الذي فيهم ويحبهم كبشر (أوغسطين، مدينة الله . مج١_٣، ٢٠٠٧، صفحة ١٦٦).

ح- لذة الألم :

إنَّ روح الانسان لن تبدأ حتى في محاولة تسليم الإرادة الذاتية طالما بدا كل شيء على مايرام لها . إن الخطأ أو الحقيقة يتميزان بهذه السمه ، وهي أنهما كلما كانا أكثر عمقاً ، كلما لم يشعر ضحيتهما بوجودهما ، فيظلان شراً مخفياً ، اما الألم فهو عارٍ وواضح ، وشر لا تخطئه العين . الكل يعرف أن هناك شيئاً ما خطأ عندما نتألم . فحتى السادي او المازوخي عندما يشعر بالالم بأنه شر ، وإنه إساءة مغلقة بالسيادة والسيطرة الكاملة من الطرف الآخر، فإنه سيتوقف عن أن يكون مثيراً جنسياً ...، وكل من شاهد المصابون بالشراهة يزدرون أشهى أنواع الطعام بسرعة وكأنهم لا يعرفون ما يأكلون، سيعترف أننا يمكن ان نتجاهل حتى اللذة لكننا لا يمكن أن نتجاهل الألم . أن الله يهمس في آذاننا بواسطة اللذات ويتكلم الينا بواسطة الضمير، لكنه يصرخ في آذاننا بواسطة الألم (لويس، ٢٠٢١، صفحة ١١٨).

يستطرد أوغسطين فيحدثنا عن ولعه بالمسرح ، وحرصه على البحث عن الانفعالات النفسية الجادة ، مما كان يدفعه الى مشاهدة المسرحيات العنيفة التي كانت تهيج عواطفه وتنير لواعج قلبه . لذلك قال أن "**الألم يلذ المشاهد** " وان " **البكاء أمر مر ولكنه قد يكون لذيذاً** " (ابراهيم، ١٩٩٤، صفحة ٣٠) .

ويتفق الاكويني مع أوغسطين بأنه يرى بان الألم يجوز ان يكون مستطاب عرضا أي من حيث يقابله الاستغراب كما في الناظر أو من ناحية تذكر حبيب ويدعو الى حب ما يعاني بعدم وجوده. ولكون الحب ممتع صار الألم وجميع الموضوعات المترتبة على المحبة باعتبار الاحساس فيها لذيذة، ولذلك تصبح الآلام كذلك في المتذوق حسنة وجميلة لأن من يحس بمحبة من يسري تذكره فيها .

ولا مانع من يكون احد المتعارضين سبب للغير عرضاً، وبذلك المعنى يمكن ان يكون الألم سبب للذة اولاً لكون الألم بغياب شيء او وجود معارض يحث الى زيادة طلب ما يتمتع به كزيادة طلب حاجة العطشان للذة الشراب لسد ما يقاسيه من ألم، أما ثانياً يعتمد الانسان لتجاوز شوقة إلى لذة ما لا يستعصي شدة الآلام لغرض الوصول الى تلك اللذة وبكلا الجانبين يسبب الأسى في الوقت الحاضر الى عزاء في المستقبل ، لأن البشر تحزنهم من المعاصي أو من تأخير المكانة يجدر العزاء الدائم، وايضاً فهو يستاهله لكونه لا يأبى المعاناة والتعب والسيء شرط ادراكه .

فالارادة و والادراك العقلي يرتبطان بافعالهما لكون تُعتبر افعالهما جميلة او قبيحة وبهذه الدلالة يمكن ان تكون كل الألام واللذات شرطاً للآخر لا بذات بل بالعرض ، لكون يعد احدهما خيراً أو شراً (الإكويني، ١٨٩١_ ١٨٩٨، صفحة ٥٤٧_٥٤٨).

كما يرى اوغسطين ان الهرب من الألم اوجب من طلب اللذة ، اذ ليس هناك شخص لا يفضل الهروب من الالآم على تجربة اللذة، وما تأتلف عليه الاشياء يكون طبيعي. فاذاً تفضيل الهروب من الألم على اللذة فطرة . اما الاكويني فيعارض

ذلك بقوله : ان الخير اقوى من الشر مستنداً على قول دينسوس في الأسماء الإلهية الداعي الى ان اختيار اللذة هو الخير الاجمل لكونه موضوعها و ان الهروب من الألم هو الشر. فرغبة اللذة اقوى عند الاكويني من الألم (الإكويني، ١٨٩١_ ١٨٩٨، صفحة ٥٥٤).

خ- أنواع الألم :

يتفق بعض آباء الكنيسة واللاهوتيين المسيحيين ، مثل يوحنا الدمشقي و غريغوريوس النيصي في ان للألم أربعة أنواع :

١- **الكسل:** الم قاطع للصوت يجعل الانسان عاجزاً عن التعبير والفعل

٢- **الحصر** : الم ضاغط للنفس ، إذ يجعلها محاصرة ولا مخرج لها .

٣- **الحسد** الم منع خير الغير ، وهو ناتج عن رؤية خير عند الآخرين .

٤- **الرحمة** الم من شر الغير ، هو الم نشعر به عند رؤية معاناة الآخرين.

أما توما الاكويني يرى في تلك الأنواع بأنها ليست انواعاً حقيقية كلها، لان بعضها يضاف للألم ، ووهو ليس من طبيعته مثل الرحمة والحسد . فما يزاد على جنس الألم عنده يعد على قسمين :

الأول : ما يتعلق بالذات وينتمي اليه بالقوة كما يزداد النطق على الحيوان .

الثاني : ما يكثر على النوع وهو خارج عن اصله كما لو كثرة الأبيض او نحوه على الحيوان وهذا الازدياد لا يحصل لى أنواع أصلية للجنس .

لذا الزيادة على جنس الألم تكون أما من جانب السبب ، أو من جانب المسبب للشيء الخاص بلالم وهو الشر الخاص . لكن يمكن اعتبار الشيء الأجنبي الماً بالاعادة الى أسباب الموضوع ونتائجه باعتباره شراً إلا انه ليس خاصاً ، و ان كسب الرحمة تلك هي الم الإنسان من خطايا الآخرين، لكن لأنه يعده كشر نفسه ، أما بالملاحظة إلى كليهما ليس من ناحية الشر الخاص أو الخير الاجنبي ، إلا انه من حيث يعد الشر الأجنبي شراً خاصاً لهذا يحصل الحسد . اما المسبب الخاص للالم فماثل بصنف من هروب الشوق فيمكن من بعد ذلك عد سببه خارج عنه ، بالملاحظة إلى واحد منهما أي باعتبار ليس هرب وبذلك يكون التضييق الذي يضيق على النفس حتى لا تستطيع الهرب . لذا يقال له ضاقت النفس أي انضغطت الى الحد الذي يقيد الحواس الظاهرة عن الحركة والعمل . وهذا الكسل كان المسبب خارج عنه بالملاحظة إلى جل الامرين أذ ليس هروباً وليس في التوق ، وينعت الكسل بتوقف الصوت لأن الصوت اعظم الحركات الدالة على التمثل والاحساس الباطني ليس في الإنسان فقط بل في الحيوان كذلك (الإكويني، ١٨٩١_ ١٨٩٨، صفحة ٥٥٩_٥٦٠).

وهذا يجعلنا نتساءل هل الألم البدني اعظم من الألم الباطن ؟

يرى اوغسطين اننا ما دمنا مركبين من نفس وجسد فالنفس هي الجزء الأفضل والجسد هو الأقل خيراً . الخير الأسمى هو افضل خير فينا ، علماً بأن الخير الأعظم للنفس هي الحكمة ، والشر الأكبر للجسد هو الألم . وينتج عن ذلك أنّ خير الإنسان الأسمى الحكمة وشرّه الأسوأ هو الألم . لذلك مهما كان الألم الجسدي صعب فخير النفس (الحكمة) أعظم من راحة الجسد ، لذلك الألم الجسدي ليس شراً اعظم (أوغسطين ا.، ٢٠٠٥، صفحة ٣٣).

إلا ان توما الاكويني يرى ان الألم الظاهر والالم الباطن يتفقان في شيء واحد ويختلفان في شيئين ، فيتفقان في ان كلاً منهما ناتج عن حركة في النفس هي الحركة (القوة الشوقية) . لكن يختلفان في :

١- **العلة :**

علة الألم الخارجي هو الشر الغير منقطع المعارض للجسم، أما علة الألم الداخلي الشر الغير منقطع المعارض للتوق .

٢ – الإدراك :

الألم الخارجي يحدث عند معارضة شيء للتوقِ من حيث يعارض الجسم، فيلحق ادراك الحس وخصوصاً اللمس ، أم الألم الباطن يحصل عن منافرة شيء للشوق نفسه فيلحق الادراك الباطن أي ادراك الوهم او ادراك العقل. فما هو قائم بذاته سابق على الأغلب على ما بالعرض، فالالم الداخلي من هذا الجانب اعظم من الألم الخارجي و ايضاً اعظم منه من ناحية المعرفة فان التعقل والوهم اعلى من حاسية التلمس . فالالم الداخلي افضل بالمطلق من الألم الخارجي . وهذا دليل على ان الانسان يستحمل ايضاً الألم الخارجي بإرادته تخلصاً من الألم الداخلي ، إلا أن الألم الخارجي لا يعارض الشوق الداخلي يكون على طرقة ما يستلذ بلذة داخلية الا انه يمكن ان يجتمع الألم الداخلي بالألم الخارجي فيشتد الألم ، فالألم الداخلي اعظم من الألم الخارجي ، و اعم منه ايضاً (الإكويني، ١٨٩١_ ١٨٩٨، صفحة ٥٥٧).

ويقدم توما الاكويني حجة على ذلك اذ يرى ان الألم مهما يكن ، يستحيل ان يكون اعظم شر للإنسان ، لأن كل الم يرتبط أما بشر حقيقي أي شيء مضر بطبيعته، أو أي شر ظاهري وهو في الحقيقة خير مثل الألم الناتج عن التوبة أو التضحية والجهاد في سبيل الخير. فالالم الذي يرتبط بالشر الأصيل ، يتوقف عن ان يكون الشر الاعظم لتوفر الاقبح منه ،فقتل الإرهابي هنالك عمل اقبح منه وهو فعل الإرهاب، فالشر اعظم حينما نخطئ بالحكم فنعتبر الشر خيراً أو العكس . والالم الذي يرتبط بالشر الخارجي الذي هو في الواقع لا يكون شراً أعظم لان الفرار من أصل الخير اقبح منه مثل ان يشعر الانسان بالم عند ممارسة فضلية ، أو التضحية أو مواجهة الحقيقة، فيستحيل اذن ان يكون بعض الألم اعظم شر للإنسان، لأن الأسوأ من الشر عند توما الإكويني هو الضلال في الاحكام، ورفض حقيقة الخير (الإكويني، ١٨٩١_ ١٨٩٨، صفحة ٥٨٨) .

رابعاً : ادوية الألم :

يعيش الانسان بمفرده ويموت بمفرده ، ولكنه أيضاً يتألم بمفرده ، و بما ان الصلة وثيقة بين الألم وبين الشعور بالذات ، فالوافع أنّ وجودنا يظل ملتبسا بوجود الأشياء ، إلى ان نتألم ، فنشعر عندئذ بان وجودنا لم يعد مختلطا بالأشياء ،لذا فإن الألم يكشف لنا عن وجودنا الفردي في حدة قاسية تتمزق معها الرابطة التي كانت توثقنا بالكون (ابراهيم، ١٩٦٦، صفحة ٢٠٥) . ولغرض إعادة الانسجام بالحياة لابد من ادوية تساعده على تعدي ازماته . فتدور أدوية الألم حول خمس مفاهيم تسكّن الألم وهي :

أ – اللذة :

يرى اوغسطين ان استعمال مافي الأرض يرتبط بمصلحة السلام الأرضي في الأرض ، واما في الارض المقدسة فيكون من اجل التصالح والاستقرار والسلام الأبدي . اما اذ كنا مثل الحيوانات لانفكر فأن رغبتنا ترتبط بما تشتهيه الاعضاء في الجسم ومع استرخاء الغريزة ما هو مقنع ويرضي ويمتع اللذة فيكون سلام البدن في خدمة النفس . وفي الحقيقة ان لم يكن البدن في استقرار تأثرت النفس غير العاقلة لعدم توفر الاطمئنان والاستقار لما يرغب به البدن ، كما أن استقرار الاثنين ينفع السلام المشترك بين النفس والبدن الذي يجمع نوعا من التشابه بين الياة والصحة (أوغسطين، مدينة الله . مج١_٣، ٢٠٠٧، صفحة ١٣٩).

لكن في اعترافاته يذكر أوغسطين أنه كان يفر من المحل الذي كان في استمرار يقابل فيه صديقه الذي توفه فقال : " اذ بسط موته على فؤادي سحابة من الحزن العميق فاصبحت أرى الموت في كل شيء واضحى لي عذاباً قاسياً كل ما

اشتركنا به في الماضي فتشت عنه عيناي في كل مكان فلم تعثرا عليه ، وكرهت كل شيء (أوغسطين، ١٩٩١، صفحة ٦٣) .

نظرهُ لم يكن يتوق إليه كثيراً ، لأنه لم يعتد رؤيته ، وهذا يفهم منه أن الأشياء التي نشارك فيها أصدقاءنا الذين رحلوا تصبح مؤلمة وثقيلة علينا ، وقد توجعنا ، فليست كل لذة قادرة على تسكين الألم .

لذلك يرى الاكويني في **اللذة بأنها يهدأ الاشتياق عندما نجد الخير الذي يناسبنا** . ما زال الشوق على حاله ، فلم يحدث ما ينافيه أو يبدده ، فنسبة اللذة الى الألم في النفس ، كنسبة الراحة إلى التعب في الاجسام . الذي ينتج عن تغير غير معتاد لأن الألم كذلك يعد دلالة على عدم الراحة أو السقم في الرغبة العميقة ، كما ان كل راحة للجسم يداوي بها كل ارهاق ناتج عن أي سبب مصطنع ، أيضاً كل لذة يرافقها شيء من الألم عن أي علة حادثة ، وهو بذلك يعتمد على راي ارسطو في كتاب الخلقيات الذي قال : " اللذة تدفع الألم المضاد والعارض اذا كانت شديدة ". (الإكويني، ١٨٩١_ ١٨٩٨، صفحة ٥٧٥_٥٧٦) . لذا فإن طبيعة الفارق الكبير بين اللذة والألم كون اللذة باسطة في حين أن الألم من شأنه دائما أن يردنا إلى ذواتنا ، ويحتسبنا في وجودنا الفردي ، ومعنى هذا أن الذات حينما تستشعر اللذة ، فإنها تستلم لهذا الشعور ، بحيث إنها لتكاد تنسى نفسها وتتخلى عن ذاتها بكس الألم (ابراهيم، المشكلة الخلقية، ١٩٦٦).

ب- البكاء :

تعدّ الدموع مرة ممتعة وطيبة، ومره شريرة و خادعة، إن نوعا من الدموع في أغلب الثقافات ، شبيها بدموع التماسيح كما نطلق عليها، وهي شق ليس للسلوكيات فقط بل للأخلاق كذلك. فبعض البكاء قديماً مثل بكاء المسيحيين في العصور الوسطى في صلواتهم، تعد مقدسة كدموع النعمة كانت في فكرهم هدايا من الله وتمجيداً له، فالنخبة المثقفة لاوربا في القرن الثامن عشر في أن البكاء علامة على القيمة الأخلاقية والحساسية الاستثنائية بالنسبة إلى الشخص الذي يبكي (لوتز، ٢٠٢١، صفحة ٢٢) .

فكان أوغسطين حين يشتاق لصديقه المتوفي لم يجد لحزنه راحة إلا بالعويل والبكاء . فقال : " سدت بوجهي سبل الفرح وتساءلت عن سبب غمي واضطرابي ولا مجيب واذا قلت لنفسي ثقي بالله ثارت لأن هذا الغائب العزيز الذي ارتحل عنا كان اقرب الى الحقيقة وافضل من ذلك السراب الذي دعوت نفسي الى الترجي فيه دون ان اطمئن الا الى البكاء الذي حل محل صديقي في قلبي ...، اتلك هي حالنا حين نتألم لفقد عزيز على قلوبنا او الحلول ذلك الأسى الشديد الذي ضغط على نفسي يوم فقدته ؟ لم يبقَ لي بصيص من الامل في ان اراه يحيى بيننا ولم اطلبه بدموعي بل اكتفيت بالبكاء والألم وحزنت لضياع فرحي . أتكون الدموع مرة وحارة في آن واحد ، لأننا نكره ما سرنا فيما مضى واصبح اليوم يحززنا ؟ " (أوغسطين، الاعترفات، ١٩٩١، صفحة ٦٤) .

ويتفق الاكويني مع اوغسطين في ذلك اذ يقول : العويل و النحيب يسكنان الألم لبسبب أمرين :

_ ان كل مؤذٍ كامن في الذات اشد تاليماً لان الذات اكثر تأرجحا اليه من أجلها فمتى اندفع الى الخارج توجه فكر النفس للخارج فيضعف الألم الداخلي ، لذلك عندما يفرغ الانسان ما في قلبة من ضيق و غم عن طريق البكاء يخف حزنه .

_ الإنسان يلتذ غالباً بالموضوع الملائم لحالتة اللحظية ، والعويل والنحيب والبكاء يلائمان المغموم والمتألم (الإكويني، ١٨٩١_ ١٨٩٨، صفحة ٥٧٧) .

ت- الشفقة :

يروي القديس اوغسطين في الاعترافات محنته في موت احد القربين عليه فيقول : ياالهي ، ياخالقنا فأي شبه بين احترامي لها وتعبدها لي . فقدت نفسي بموتها كل عزاءٍ فتألمت جداً وشعرت بان حياتي التي كانت متحدة بحياتها تتمزق ...انضم الينا عدد كبير من إخواننا ومن النساء الفتيات بعد ان سمعن بما جرى ، وراح ذوو الشأن يهتمون بالدفن كما هي العادة ، أما انا فقد انتحيت موضعاً اتقبل التعازي مع الأصدقاء اللذين ابت عليهم مروءتهم ان يتركوني وحدي وكنت أقول لهم ما يناسب المقام وببلسم الحقيقة هذا كنت اخفف من وطاة عذاب ، انت عالم به اما هم فلا . وكانوا يصغون الي بكل انتباه ويتصورونني خالياً من الحزن اما انا فالبقرب من اذنك حيث لا يستطيع احد منهم ان يسمعني كنت اؤنب قلبي على ضعفه واحاول ان أوقف تيار الألم فتوصلت الى غايتي رويداً رويداً (أوغسطين، الاعترفات، ١٩٩١، صفحة ١٨٩).

أما توما الاكويني يستند على قول ارسطو في ان(**الصديق الشفوق يعزي في الآلام**) ، فالصديق الشفوق معزٍ طبعاً في الآلام وقد علل ارسطو ذلك في امرين : احدهما انه لما كان من شأن الألم ان يضغط الانسان كان يحوي صدق الثقل الذي يسعى المحمل به ان يقلل عن ذاته فمتى رأى الانسان آخرين مساهمون له في الألم توقع انهم تولى معه بذلك الثقل تقليلاً له عنه فيخفف عليه شدة الألم. والثاني وهو الأولى ان الانسان متى شاركه الأصدقاء في المه ادرك انهم يحبونه وهذا مستلذ لديه، فاذاً لما كانت كل لذة تسكن الألم يلزم ان الصديق الشفوق يسكن الألم . (الإكويني، ١٨٩١_ ١٨٩٨، صفحة ٥٧٩).

ث- النظر في الحق :

إنّ الراحة الحقيقية عندما تأتي من الله يختفي الألم . هذا ما يراه أوغسطين اذ قال : كان يتضح أنّه إذا انكشف لأذهاننا ذلك الضياء ضياء الحق ، فأنا لن أحس بذلك الألم واحتمله . و لقد استند على الكتاب المقدس في مزمور " انك حقاً ذاك الكائن عينه 'انت يامن لا تتغير، فيك الراحة التي تنسينا كل تعب ، ان لا احد سواها يقيم معك ، ولن ابحث من ثَمَّ عن سواها من الأشياء التي ليست ، أنت أيها الرب يامن وحدك تسكنني في طمأنينة " (مزمور ٩:٤) . ان الاخيار والاشرار يتقاسمون البلايا فهم متمايزون لأن التشابه في الألم لا ينفي التمايز بين محتمليه ، والتطابق في العذاب لا يعني تطابقاً بين الرذيلة والفضلية . في البوتقه الواحدة الذهب يلمع والقش يدخن ، الضربة الواحدة تحطم القش وتفصل الحب ، الزيت والعكر لا يمتزجان إذا سالا معاً تحت حجر المعصرة . وعلى هذا النحو البوتقة تمتحن وتنفي وتذوب في المحبة النفوس الفاضلة (أوغسطين، ٢٠٠٧، صفحة ١٩).

اما الاكويني فيرى ان اعظم لذة قائمة بالنظر في الحق ، وكل لذة تسكن الألم ومن ثم فالتبصر في الحق يخفف الألم ويسكنه إياه بتزايد حب الإنسان للمعرفة كقوله : احتسبو كل سرور يا اخوتي ان تقعوا في تجارب مختلفة (يع ١: ٢). و أن هذه المتعة تحصل كذلك في اثناء تعذيب الجسم كما ان تريبوريوس الشهيد عندما كان يسير حافي القدم على الجمرات المشتعلة فقال : يظهر لي اني امشي باسم يسوع المسيح على زهرة الورد (الإكويني، ١٨٩١_ ١٨٩٨، صفحة ٥٨٠).

ج- النوم والاستحمام :

يروي اوغسطين انه قد "سمع ان كلمة حمام مشتقة من كلمة يونانية تعني **طرد الحزن من النفس**. لكنني ياب الأيتام، اعترف لرحمتك وأقول اني بقيت بعد الحمام كما كنت سابقاً ولم افرغ منه عرق قلبي المرير ولساعتي نمت ولما استيقظت شعرت بان حزني قد خف كثيراً، وفي سريري كنت أتذكر منفرداً الابيات الشعرية الصحيحة التي لصاحبك امبروسيوس ياالله أيها الخالق كل شيء والمنظم السماوات ، يا من تلبس النهار نوراً بهياً والليل نوماً هنياً لكي تستعيد الأعضاء المنهوكة قواها وترجع الى عملها العادي يا من تخفف من حمل القلوب التعبة وتبدد عنها الهم والغم " (أوغسطين، الاعترفات، ١٩٩١، صفحة ١٩٠) .

اما القديس توما الاكويني فيرى ان الألم منافر بنوعه لحركة البدن الحيوية ولذلك فما يعيد الطبيعة الجسمانية الى مقتضى حالة حركتها الحيوية فهو منافر للالم ومسكّن له بل ان هذه الادوية برجوع الطبيعة بها الى طبيعتها المطلوبة تحدث عنها راحة فان هذا ما احدث اللذة ، فلما تكن اللذة تخفف الألم فيخف الألم بهذه الادوية البدنية (الإكويني، ١٨٩١_ ١٨٩٨، صفحة ٥٨١).

الخاتمة :

يعد الألم في الفلسفة المسيحية موضوعًا معقداً، يتداخل فيه البُعد الميتافيزيقي مع الواقعي، مما يعكس الطبيعة المركبة للمعاناة البشرية. لا ينظر إلى الألم على أنه شر مطلق، بل يُعد وسيلة لتطهير النفس ومشاركة في آلام المسيح، وسبيلاً لفهم الخلاص من الخطايا. وتقوم الفلسفة المسيحية على الوعي بالألم والتأمل في الغاية الإلهية من وجوده، وليس التخلص منه فقط .

يرى أوغسطين وتوما الإكويني أن الألم ليس مجرد تجربة نفسية، بل يرتبط بثقافة الخير والشر، ويأخذ طابع العذاب المرتبط بالخطيئة والتوبة . فالألم في نظرهما، يُعيد التوازن بين الإنسان والنظام الإلهي والاجتماعي والعقلي. بينما كان أوغسطين أكثر التزاماً بالنصوص ، أما توما الإكويني اتجه إلى منهج عقلاني أكثر تحررًا في تفسيره، وتُعد اللذات كالنظر في الحق، والشفقة، والبكاء، والنوم، وسائل لتهدئة الألم الجسدي والروحي . كما أن الألم يحمل بعداً تعليمياً وتربوياً في الفلسفة المسيحية، فهو يُعلم الإنسان الصبر والتواضع، ويقوده نحو التزكية والرجاء. في النهاية، لا تُقدم الفلسفة المسيحية حلولاً قاطعة للألم، لكنها تدعو إلى فهم أعمق له كوسيلة للنمو الروحي وتعميق العلاقة مع الله، مما يمنح الإنسان معنى أوسع لمعاناته.

المراجع :

- الكتاب المقدس .
- أ.س. رابوبرت. (٢٠١٤). *مبادئ الفلسفة*. (أحمد أمين، المترجمون) المملكة المتحدة : مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع.
- ابراهيم مدكور. (١٤٠٢هـ_ ١٩٨٣م). *المعجم الفلسفي* . القاهرة : الهيئة العامة للمطابع الاميرية .
- ابن منظور . (بلا تاريخ). *لسان العرب*. القاهرة: دار المعارف.
- ابيقور. (ب ت). *الرسائل والحكم*. الدار العربية للكتاب.
- أحمد الدبوبي. (٢٠٢٣). *الفلسفة والألم* (المجلد الاولى). العراق: دار ابكالو للنشر والتوزيع.
- إسماعيل مظهر. (٢٠١٤). *فلسفة اللذة والألم*. مصر : مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- أفلاطون. (١٩٩٤). *المحاورات الكاملة ، مج ١، (الجمهورية)*. (شوقي داود تمراز، المترجمون) بيروت: الاهلية للنشر والتوزيع.
- الجرجاني . (١٩٨٥). *التعريفات* (المجلد جديدة). بيروت: مكتبة لبنان .
- السخيري أم الخير. (٢٠٢٠_٢٠٢١). التفسير الديني للأخلاق عند أوغسطين. رسالة ماجستير _ جامعة قصدي مرباح ورقله.
- القديس أوغسطين. (٢٠٠٥). *محاورة الذات* (المجلد الأولى). (الخور أسقف يوحنا الحلو، المترجمون) بيروت: دار المشرق.
- المعجم الوسيط . (٢٠٠٤). القاهرة: مكتبة الشرق الدولية .
- أوغسطين. (١٩٩١). *الاعترفات* (المجلد الرابعة). (الخوري يوحنا الحلو، المترجمون) بيروت، لبنان : دار المشرق.
- أوغسطين. (٢٠٠٧). *مدينة الله . مج١ _٣* (المجلد الثانية). (الخور أسقف يوحنا الحلو، المترجمون) بيروت: دار المشرق.
- توم لوتز. (٢٠٢١). *تاريخ البكاء _تاريخ الدموع الطبيعي والثقافي* (المجلد الأولى). (عبد المنعم محجوب، المترجمون) مكتبة صفحة ٧.
- توما الإكويني. (١٨٩١_ ١٨٩٨). *الخلاصة اللاهوتية مج٢ _ ٤*. (الخوري بولس عواد، المترجمون) بيروت: المطلعة الادبية.
- جلال الدين سعيد. (١٩٩٩). *فلسفة الرواق _دراسة ومنتخبات* . مركز النشر الجامعي .
- جميل صليبا. (١٩٨٢). *المعجم الفلسفي ج١* . بيروت، لبنان : دار الكتاب اللبناني.
- دافيد لوبروطون. (٢٠٠٧). *تجربة الألم بين التحطيم والانبعاث* (المجلد الاولى). (فريد الزاهي، المحرر) الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.
- زكريا ابراهيم. (١٩٦٦). *المشكلة الخلقية*. دار مصر للطباعة _ مكتبة مصر.
- زكريا ابراهيم. (١٩٩٤). *اعترافات القديس توما الأكويني*. مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- زكريا ابراهيم. (بلا تاريخ). *مشكلة الإنسان* . القاهرة، مصر : مكتبة مصر _ الدار المصرية للطباعة.
- س. أس . لويس. (٢٠٢١). *معضلة الألم* (المجلد الأولى). (د. أوسم وصفي، المترجمون) الأردن : أوفير للطباعة والنشر .
- عادل فرج عبد المسيح (المحرر). (٢٠١٠). *موسوعة أوغسطنيوس عبر العصور ج١* (المجلد الأولى). مركز بيت الحياة.
- عبد الجليل كاظم الوالي. (٢٠٠٩). *الفلسفة اليونية* (المجلد الاولى). الوراق للنشر والتوزيع.
- ماجد فخري. (١٩٩١). *تاريخ الفلفسفة اليونانية* (المجلد الاولى). بيروت، لبنان : دار العلم للملايين.

- ميلفين تينكر. (٢٠١١). *كيف يؤمن بإله المحبة في عالم الصمت.* (هدى بهيج وسامي ر . مورغان، المترجمون) مركز مورغان للنشر والاعلام.
- نهى عبد العزيز . (٢٠٢٤). مفهوم الألم في الفكر الفلسفي الأخلاقي. (٢).
- يوسف كرم. (٢٠١٢). *تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط.* القاهرة، مصر : مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.